الباب الثالث والعشرون

فى القول فى السماع ردًا وإنكارًا

قد ذكرنا وجه صحة السماع وما يليق فيه بأهل الصدق، وحيث كثُرت الفتنة بطريقه وزالت العصمة فيه.

وتصدّى للحرص عليه أقوام قلّت أعمالُهم، وفسدت أحوالهم، وأكثروا الاجتماعَ للسماع، وربما يُتَّخذ للاجتماع طعامٌ تطلب النفوسُ الاجتماعَ لذلك، لا رغبةً للقلوب فى السماع كما كان من سير الصادقين، فيصير السماع معلولاً تركن إليه النفوس طلبًا للشهوات، واستحلاءً لمواطن اللهو والغفلات، وينقطع بذلك على المريد طلبُ المزيد، ويكون بطريقه تضييع الأوقات وقلّة الحظّ من العبادات، وتكون الرغبةُ فى الاجتماع طلبًا لتناول الشهوة واستراحًا لأُولى الطرب واللهو والعِشرة، ولا يخفى أن هذا الاجتماع مردودٌ عند أهل الصدق.

فكان يقال: لا يصح السماع إلاّ لعارف مكين، ولا يُباح لمريدٍ مبتدئ.

وقال الجنيد، رحمه الله تعالى،: إذا رأيتَ المريدَ يطلب السماعَ فاعلم أنَّ فيه بقيةً للبطالة.

وقيل إن الجنيد ترك السماع، فقيل له: كنتَ تسمع فلم تمتنع؟ فقال: مع من؟ قيل له: تسمع أنت لنفسك؟ فقال: ممن؟

لأنهم كانوا لا يسمعون إلاّ من أهلٍ مع أهلٍ، فلمّا فُقِد الإخوانُ تُرك.

فما أختاروا السماع حيث اختاروه إلاّ بشرطٍ وقيودٍ وآداب؛ يذكرون به الآخرة، ويرغبون به فى الجنة، ويحذّرون من النار، ويزداد به طلبهم، ويَحْسُن به أحوالهم يتفق لهم ذلك اتفاقًا فى بعض الأحايين، لا أن يجعلوه دأبًا وديدنًا[1] حتى يتركوا لأجله الأوراد.

وقد نقل عن الشافعى، رضى الله تعالى عنه، أنه قال فى كتاب «القضاء»: «الغِناء لهو مكروه يشبه الباطل».

وقال: من استكثر منه فهو سفيه تُردُّ شهادته.

---

(١) عادة وطبعًا.

واتفق أصحاب الشافعي على أن المرأة غيرَ المحرَم لا يجوز الاستماعُ إليها سواء أكانت حرّة أو مملوكةً أو مكشوفة الوجه أو من وراء حجاب.

ونقل عن الشافعي، رضى الله تعالى عنه، أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب، ويقول: وضَعَه الزنادقة ليشْغَلُوا به عن القرآن.

وقال: لا بأس بالقراءة بالألحان وتحسين الصوت بها بأىّ وجه كان.

وعند مالك، رضى الله تعالى عنه،

إذا اشترى جاريةَ فوجدها مُغنيةً فله أن يَرُدَّها بهذا العيب، وهو مذهب سائر أهل المدينة وهكذا مذهبُ الإمام أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه.

وسماع الغناء من الذنوب، وما أباحه إلاّ نفر قليل من الفقهاء؛ ومن أباحه من الفقهاء أيضًا لم ير إعلانه فى المساجد والبقاع الشريفة.

وقيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهوَ الْحَدِيثِ﴾[1]

قال عبد الله بن مسعود، رضى الله تعالى عنه: هو الغناء والاستماعُ إليه.

وقيل فى قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾[2] أى: مغنّون.

رواه عِكرمة، عن عبد الله بن عباس[3]، رضى الله تعالى عنهما، وهو الغناء بلغة حِمْيَرَ، يقول أهل اليمن: سَمِد فلان؛ إذا غنّى.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾[4] قال مجاهد: الغناء والمزامير.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كان إبليس أول من ناح وأول من غنى».

وروى عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه: أن النبى ﷺ قال:

«إنما نهيت عن صوتين فاجرين: صوتٌ عند نعمة، وصوت عند مصيبة».

وقد رُوِىَ عن عثمان، رضى الله تعالى عنه أنه قال:

«ما غَنّيت، ولا تمنّيت، ولا مسست ذكرى بيمينى منذ بايعت رسول الله ﷺ.

وروى عن عبد الله بن مسعود، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: «الغناء ينبت النفاق فى القلب».

---

(١) آية رقم ٦ من سورة لقمان.

(٢) آية رقم ٦١ من سورة النجم.

(٣) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

(٤) آية رقم ٦٤ من سورة الإسراء.

وروى أن ابن عمر رضى الله تعالى عنه: مرّ على قوم وهم مُحرمُون، وفيهم رجل يتغنّى، فقال:

«ألاَ لا سمع الله لكم، ألاَ لا سمع الله لكم».

وروى أن إنسانًا سأل القاسم بن محمد عن الغناء، فقال: أنهاك عنه، وأكرهه لك

قال: أحرام هو؟

قال: انظر يا ابن أخى إذا ميّز الله الحق والباطل فى أيّهما تَجعل الغناء؟

وقال الفضيل بن عياض[1]: الغناء رُقْيَة الزنا.

وعن الضحاك: الغناء مفسدة للقلب مسخطة للربّ

وقال بعضهم: إياكم والغناء؛ فإنه يزيد الشهوة ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعل السُكْر.

وهذا الذى ذكره هذا القائل صحيح؛ لأن الطبع الموزون يُفيق بالغناء والأوزان[2]، ويستحسنُ صاحبُ الطبع عند السماع ما لم يكن يستحسنه من الفرقعة بالأصابع، والتصفيق، والرقص، وتصدر منه أفعال تدلّ على سخافة العقل.

وروى عن الحسن أنه قال: «ليس الدفّ من سنّة المسلمين».

والذى نقل عن رسول لله ﷺ: «أنه سمع الشعر»، لا يدلّ على إباحة الغناء، فإن الشعر كلام منظوم، وغيره كلام منثور، فحسَنُه حَسَن وقبيحُه قبيح، وإنما يصير غناءً بالألحان.

وإن أنصف المنصف وتفكّر فى اجتماع أهل الزمان، وقعود المغنّى بدفّه والمشبّب بشبّابته، وتصوّر فى نفسه هل وقع مثل هذا الجلوس والهيئة بحضرة رسول الله ﷺ، وهل استحضروا قَوّالا وقعدوا مجتمعين لاستماعه لا شك بأنه ينكر ذلك من حال[3] رسول الله ﷺ وأصحابه؟!ولو كان فى ذلك فضيلة«تُطلب ما أهملوها فمن يشير بأنه

---

(١) هو: أبو على الفضيل بن عياض بن مسعود التميمى، ولد بخراسان، ومات بمكة سنة: سبع وثمانين ومائة (٨٠٣م) كان إمامًا ربانيًا، شديد الخوف دائم الفكر، ومن كلامه: (جعل الله الشرّ كله فى بيت وجعل مفتاحه حبّ الدنيا، وجعل الخير كله فى بيت وجعل مفتاحه الزهد فيها). وقال: (يهابك الخلق على قدر هيبتك لله) [انظر فى ترجمته الرسالة القشيرية جـ ١ صـ ١٧، وطبقات الصوفية، وتذكرة الحفاظ، والأعلام للزركلى].

(٢) الأوزان: الأشعار.

(٣) وفى نسخة (لا شك بأن تنكر ذلك من حال بخلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم) والمعنى على قوله «من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم» أى أخذ من حاله واستدلالاً به حيث كان لا يفعل ذلك

فضيلة تُطلب، ويُجتمع لها، لم يحظ بذوق معرفة أحوال رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين، واستروح إلى استحسان بعض المتأخرين ذلك.

وكثيرًا ما يغلط الناس فى هذا، وكلما احتُجَّ عليهم بالسلف الماضين.. يحتجون بالمتأخرين!!

وكان السلف أقربَ إلى عهد رسول الله ﷺ، وهديُهم أشبه بهدى رسول الله ﷺ.

وكثير من الفقراء يتسمَّح عند قُرّاء[1] القرآن بأشياء من غير غلبة.

قال عبد الله بن عروة بن الزبير: قلت لجدّتى أسماء بنت أبى بكر الصدّيق، رضى الله عنهما.

كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرىء عليهم القرآن؟

قالت: كانوا كما وصفهم الله تعالى: تدمع أعينهم وتقشعرّ جلودهم.

قال: قلت: إن أناسًا اليوم إذا قرىء عليهم القرآن خَرَّ أحدهم مغشيًا عليه!! قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وروى أن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، مرّ برجل من أهل العراق يتساقط، قال: ما لهذا؟ قالوا: إنه إذا قرىء عليه القرآن وسمع ذكر الله تعالى سقط، فقال ابن عمر رضى الله عنهما: إنّا لنخشى الله وما نسقط!! إن الشيطان يدخل فى جَوْف أحدهم، ما هكذا كان يَصنع أصحاب رسول الله ﷺ؟.

وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرىء القرآن، فقال:

بيننا وبينهم أن يقعد واحد منهم على ظهر بيْت باسطًا رجليه ثم يُقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره، فإن رمى بنفسه فهو صادق.

وليس هذا القول منهم إنكارًا على الإطلاق؟ إذ يتفق ذلك لبعض الصادقين، ولكن للتصنُّع المتوهَّم فى حقّ الأكثرين، فقد يكون ذلك من البعض تصنُّعًا ورياءً، ويكون من البعض لقصور علم، ومخامرة جهل ممزوج بهوى يُلِمُّ بأحدهم يسيرٌ من الوجد فيُتبعه بزياداتٍ يجهل أنّ ذلك يضرُّ بدينه، وقد لا يجهل أن ذلك من النفس، ولكن النفس تسترق السمع استراقًا خفيًا يُخرج الوجدَ عن الحد الذى ينبغى أن يقف عليه. وهذا يباين الصدق.

---

(١) وفى نسخة عند قراءة القرآن.

نُقل أن موسى عليه السلام وعظ قومه، فشقّ رجل منهم قميصه، فقيل لموسى عليه السلام:

قل لصاحب القميص لا يَشُقّ قميصه ويشرح قلبه.

وأمّا إذا انضاف إلى السماع أن يسمع من أمرد فقد توجهت الفتنة، وتعيّن على أهل الديانات إنكار ذلك.

قال بقيةُ بن الوليد: كانوا يكرهون النظر إلى الغلام الأمرد الجميل.

وقال عطاء: كل نظرة يهواها القلب فلا خير فيها.

وقال بعض التابعين: ما أنا أخوف على الشاب التائب من السَبُع الضارى خوفى عليه من الغلام الأمرد يقعد إليه.

وقال بعض التابعين أيضًا: اللوطيّةُ على ثلاثة أصناف:

صنف ينظرون؛ وصنف يصافحون؛ وصنف يعملون ذلك العمل.

فقد تعيّن على طائفة الصوفية اجتنابُ مثل هذه الجماعات، واتّقاء مواضع التهم؛ فإنّ أمر التصوف صدقٌ كله، وجدٌ كلّه، يقول بعضهم:

التصوف كلّه جدٌ فلا تخلطوه بشيء من الهزل.

فهذه الآثار دلّت على اجتناب السماع وأخذ الحذر منه.

والبابُ الأول بما فيه دلّ على جوازه بشروطه وتنزيهه عن المكاره التى ذكرناها.

وقد فصّلنا القول وفرقنا بين القصائد والغناء وغير ذلك.

وكان جماعة من الصالحين لا يسمعون، ومع ذلك لا يُنكرون على من يسمع بنيّة حسنة ويراعى الأدبَ فيه.